جامعة الانبار
كلية القانون والعلوم السياسية
قسم العلوم السياسية
فكر سياسي غربي حديث
المرحلة الثالثة
مدرس المادة: أ.م.د. مؤيد جبير محمود

توماس هوبز: ١٥٨٨-١٦٧٩ م

طبيعة الفكر السياسي لهوبز

يمكن التعرف على الفكر السياسي لهوبز من خلال مجموعة من كتبه التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع انجلترا وأحوالها في عصره. فقد وضع كتابه (عناصر الفلسفة: المواطن) عام ١٦٤٢م ليكرسه بشكل من الأشكال للدفاع عن السلطة المطلقة، وعندما اندلعت الحرب الأهلية في انجلترا لجأ بمحض إرادته إلى فرنسا، وبعد عودته منها وضع كتابه الشهير (اللفياثان/ الوحش/ التنين) عام ١٦٥٠م دون أن يقتصر عمله على هذين الكتابين حيث وضع كتباً أخرى تتعلق بالمنطق والرياضيات وفلسفة القانون.

لقد حكمت فكر هوبز السياسي في مقدماته ونتائجه حالة الخوف التي كان يعيشها كمواطن في زمن وبلد تعرضا للتقلبات السريعة والحادة بفعل الانقسامات والصراعات المذهبية والثورات السياسية وما نتج عنها من حرب أهلية، اقترنت بقتل العديد من الشخصيات البارزة بما في ذلك الملك شارك الأول، مما جعل أفكار هوبز تعبيراً عن خوفه هذا ورد فعل عليه، فوجه جهوده الفكرية للتأسيس لنظام سياسي قادر على تحقيق الأمن وتوفير السلام والطمأنينة حتى ولو قام هذا النظام على السلطة المطلقة. لذلك فقد كان البحث عن السلام والسلام والطمأنينة هو الهاجس البديل لديه عن هاجس الخوف ليكون حضور الأول ضماناً لغياب الثاني، وما شغل بال هذا المفكر بشكل خاص هو الوسيلة التي بموجبها يتحقق الأمن والسلام والطمأنينة ليتم تجاوز الخوف وكانت هذه الوسيلة متمثلة لديه في السلطة المطلقة.

الانتقال من حالة الطبيعة إلى المجتمع عند هوبز

١- حالة الطبيعة وجدت قبل أن يوجد المجتمع المنظم والمحكوم.

٢- مبدأ الرغبة في كل شيء والذي كان يحكم الإنسان في تلك الحالة.

٣- إن الإنسان منافس لأخيه الإنسان والنتيجة المترتبة على ذلك هي الحرب الدائمة (حرب الواحد ضد الآخر) و (حرب الجميع ضد الجميع).

٣- تعني الحرب الإرادة الثابتة في الصراع، وطالما توجد مثل هذه الإرادة فستكون الحرب هي الحالة السائدة والدائمة وليس السلام.

٤- ولهذا فلن يكون هناك مكان على وجه الأرض للصناعة ولا للمعرفة ولا لقياس الزمن ولا للفنون والآداب ولا المجتمع فكل الذي يوجد هو الخوف الدائم وخطر الموت، كما لن يكون هناك أيضاً وجود لما هو عادل أو ظالم.

٥- كما لا وجود في حالة الطبيعة للملكية الشخصية للأشياء وما هو لي وما هو لك بشكل تتميز فيه ملكية الواحد عن الآخر.

٦- تفسر الصورة المضطربة لبريطانيا سعيه لتبرير تدخل الدول في جوانب من الشؤون الاقتصادية باعتبار هذا التدخل ضرورة حيوية لازمة للقضاء على البطالة وتحديد النفقات الخاصة للرعايا.

٧- السلطة المكلية المطلقة هي أداة تحقيق توازن المصالح في ظروف الاضطراب والتنافس والصراع.

قوانين الطبيعة عند هوبز

كيف يتم الانتقال من حالة الطبيعة الى حالة المجتمع المدني –السياسي؟

١- أساس وشرط الخروج من حالة إلى الطبيعة وإقامة المجتمع المدني- السياسي هو مبدأ العقل(الذي يرى أنه هو من يُعلم الناس أن يسارعوا لحل تناقض الطبيعة، وهو القوة التنظيمية التي يتوقف عليها انتقالهم من الحالة الطبيعية إلى الحالة المجتمعية. ولكن هذا الانتقال لا يحدث بشكل اعتباطي وإنما يتم وفقاً لقوانين الطبيعة التي تقرر ما يعمله كل كائن عاقل.

٢- قانون الطبيعة عند هوبز هو كل ما يميله العقل السليم الذي يُعلم الاشياء التي يجب عملها والأشياء التي يجب استبعادها من أجل المحافظة على استمرار الحياة.

٣- يحدد هوبز تسعة عشر قانوناً طبيعياً لكنه يؤكد بشكل خاص على قانونين طبيعين رئيسين من بينهما، وهما:

- قانون البحث عن السلام

- قانون الدفاع عن النفس بكل الطرق المتوفرة.

٤- المحافظة على الذات هي النقطة المركزية في نشاطات الحياة الإنسانية، وعندما تُكتسب المحافظة على الذات في مثل هذه المكانة المحورية في حياة الإنسان فإنها ستدفعهم إلى التعاون، ومن اجل ظان يضمن الإنسان أمنه، فإنه يسعى لتحقيق السلام، ولأنه لا يستطيع تحقيق السلام بمفرده، عليه التعاون مع غيره لتحقيقه.

٥- استناداً إلى ذلك فالناس مضطرون للإتفاق على التنازل عن الحق المطلق الذي يمتلكه كل فرد منهم في الدفاع عن نفسه وضمان أمنه وسلامته.

٦- لا يمكن تحقيق هذا الاتفاق ما لم توجد قوة قاهرة تفرضه وتضمنه وتحميه بما هي مجهزة به من الشروط المادية والمعنوية المؤكدة والملحوظة والملموسة عيانياً للقدرة على إيقاع العقاب بمخالفيها والخارجين عليها، لأن العقوبة دون سيف ليس أكثر من كلمات.

العقد الاجتماعي ونشوء الدولة عند هوبز

١- تعود فكرة العقد الاجتماعي بأصولها الأولى إلى الفلاسفة اليونايين لا سيما أبيقور ومدرسته، وربما أبعد من ذلك أيضا السفسطائيين.

٢- آخذ هوبز الفكرة من البروتستانت الفرنسيين (الهوكونوت) بعد أن استوحى مضمونها من الصياغة القانونية الرومانية لنظرية العقد الاجتماعي والقائلة (إن كل سلطة وكل حق في وضع القوانين، يعودان إلى الشعب الروماني الذي تنازل بدوره عن هذه الحقوق للإمبراطور ليمارسها باسم الشعب الروماني نيابة عنه).

٣- تفترض الصياغة الجديدة التي قدمها هوبز لفكرة العقد الاجتماعي، إن الناس الطبيعيين (الناس في مرحلة الطبيعة)، أقاموا لهم مجتمعاً قبل أن يعقدوا بينهم العقد الذي انبثقت عنه السلطة السياسية المنظمة (الدولة).

٤- كما افترض هوبز أن اتفاق الإرادات الإنسانية الفردية لم يكن كافياً في حد ذاته لقيام الدولة، بل كان من اللازم اندماج هذه الإرادات الفردية لتكوين إرادة مجتمعية واحدة كلية عامة عليا (إنسان أو مجلس)، تخضع لها الإرادات الجزئية الفردية.

٥- العقد الاجتماعي عند هوبز لم يكن بين الأفراد من أعضاء المجتمع والسيد صاحب السيادة، وإنما كان العقد بين هؤلاء الأفراد الذين أتفقوا بأنفسهم وفيما بينهم على التنازل عن كل حقوقهم وحرياتهم التي من شأنها الإضرار بالسلام لمصلحة هذا السيد صاحب السيادة الذي لا يعد طرفاً في العقد ولا خاضعاً لشروطه.

٦- هوبز كان يطمح إلى تقوية السلطة المطلقة ويمنحها حقوقاً هائلة فعندما ينخرط الافراد في المجتمع السياسي تضمر حقوقهم إن لم تختفِ كلياً لصالح السلطة التي يتنازلون لها عن هذه الحقوق.

الدولة والحقوق الفردية عند هوبز

ان ما يترتب على هذا العقد في صورته عند هوبز، هو أن صاحب السيادة:

-وحده من يمسك بسيف العدل وسيف الحرب.

-وحده يحدد ما هو لي وما هو لك.

-وحده من يحدد ما هو عادل وما هو ظالم.

-وحده من يحدد ما هو شريف وما هو فاجر.

-وحده يحدد ما هوخير وما هو شر.

ولكن أين ذهبت حقوق الافراد ؟

الجواب:

١-لقد زالت الحقوق الطبيعية للأفراد بعد ان تنازلوا عنها لصاحب السيادة بموجب العقد الاجتماعي المبرم بينهم، وعليه لم يعد لهم من حقوق الا الحقوق التي يقررها صاحب السيادة'

٢-الحرية عن هوبز يتمتع بها الانسان في منطقة (سكوت القانون) ، والحرية بهذا المعنى لا وجود لها لافتقار الانسان لحرية الارادة.

٣- والسمة المميزة لحالة الطبيعة عند هوبز هي انعدام الحرية فيها بسبب الصراع والحرب.

٤-ان انتقال الانسان من حالة الطبيعة الى حالة المجتمع المدني ، فغنه يقترن بتحقيق الحرية بقدر ما يقترن وجود المجتمع المدني بوجود الدولة او حركتهم بقضائه على حالة الصراع والحرب عن طريق القوانين التي يشرعها ويطبقها.

٥- الحرية التي يقصدها هوبر هي حرية التصرف ، أما حرية الارادة او الحرية بمعناها العام فهي موضع استهجانه ، وانتقد الفلاسفة الذي مجدوا الحرية لانهوا في رأيه أفسدوا الناس بعملهم هذه وقادوهم الى استحسان الفوضى باسم الحرية.

٦-لقد اسهم هوبز بافكاره هذه اسهاما أثر في اسناد الدولة الوضعية بتقديمه كل المبررات النظرية اللازمة لتعزيز سلطتها المطلقة.

المصادر:

١- عبد الرضا الطعان، علي عباس مراد، عامر حسن فياض، ط١،موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥.
٢- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر النهضة، ج١، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٣- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ط٢، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.
٤- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر الاصلاح الديني، ج٢، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٥- فرانسو شاتليه، تاريخ الايديولجيات-القرن ٧-١٩، ج٢، ترجمة انطون حمصي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٧.